لغة الغناء

قد يكون هذا العنوان : لغة الغناء مبايناً لموضوع المقال ، فلست أريد بلغة الغناء ما يُستعمل في هذا الباب من الألفاظ فاني غريب عن هذا الفن ، وإنما الذي أريده بلغة الغناء مايستعمله الأدباء في وصف محاسن الأصوات والألحان وتأثيرها في النفوس ، وقد رأيت أن كتاب الأغاني إنما هو أوسع مرجع إلى هذا الوصف .

اهتمّ أبو الفرج الأصبهاني في مقدمة كتاب الأغاني الاهتمام كلّه بالإشارة إلى الأغاني ، فلم يبال بشيء مبالاته بذكرها ، ويكاد ذكر الأغاني يستغرق المقدمة كلّها ، فقد أوتي من ذوق الغناء والمعرفة بأصوله وبالأصوات والألحان الشيء الكثير ، فإنّ له في هذا الميدان الباع الطويل ، وهذا أمر يؤيّده تأليفه في الغناء ، من ذلك رسالته إلى بعض إخوانه في علل النغم ، وقد جاء ذكرها في كتاب الأغاني ، فضلاً عن دخوله في المناظرات والمجادلات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمراسلات والمشافهات التي كانت تجري بين أئمة المغنّين ، وآراؤه في هذا المعنى مبثوثة في أضعاف كتاب الأغاني .

فكما كان أبو الفرج إماماً في الأدب فكذلك كان إمامـاً في الغناء ، ولقد نشأ في بيت يذوق أهله الغناء ، فقد طلب أبوه هـذا الفن وواظب عليه ، وسمع مرّة لحناً لجميلة في منزل يونس بن محمد الكاتب فانصرف وهو كئيب ، حزين ، مغموم ، وكما كان لأبيه ذوق في الغناء فكذلك كان لعمته مثل هذا الذوق .

وقبل الشروع في موضوعنا وهو الإتيان بنماذج من وصف الغناء وتأثيره في النفوس ، لابأس بذكر ماجاء في أخبار جميلة على لسان شيخ ذي سنٍّ وعلمٍ وفقهٍ وتجربة من وصف الغناء نفسه ، فالغناء في رأي ذلك الشيخ من أكبر اللذّات ، وأسرّ للنفوس من جميع الشهوات ، يحيي القلب ويزيد في العقل ، ويسرّ النفس ويفسح في الرأي ، ويتيسَّر به العسير ، وتفتح به الجيوش ، ويتذلّل به الجبّارون ، حتى يمتهنوا أنفسهـم عند استماعه ، ويبري المرضى ومن مات قلبه وعقله وبصره ، ويزيد أهـل الثروة غنى ، وأهل الفقر قناعة ورضا باستماعه ، فيعزفون عن طلب الأموال ، من تمسَّك به كان عالماً ، ومن فارقه كان جاهلاً ، لأنه لامنزلة أرفع ولا شيء أحسن منه ، فكيف يستصوب تركه ؟ ولا يستعان به على النشاط في عبادة ربّنا عزّ وجلّ ...

فاذا كان للغناء هذه المنزلة في النفوس فلا عجب إذا خاض أبو الفرج في أمور كثيرة تتعلّق بهذا الفن ، فقد جاءت في كتاب الأغاني إشارة إلى ضروب الغناء ، منهـا الضرب المطرب المحرّك ، ومنها الضرب ذو الشجا والرقّة ، ومنها الضرب ذو الحكمة وإتقان الصنعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

لقد تتبّع أبو الفرج أخبار الغناء فذكر أصله ونشأته ، وذكر الذين تعلّموا ألحان الفرس وغناءهم ، والذين تعلّموا ألحان الروم وغناءهم ، وألمع إلى البلاد التي ضعف فيها الغناء ، مثل الشام ، فلم يغفل عن أمور كثيرة تتصل بالغناء ، ولا سيّما بالخلفاء الذين حذقوا الغناء ونقدوه ، فميّزوا بين متانته وبين انخنائه ولينه ، أو الخلفاء الذين كانوا يؤثرون الطرب على كل شيء .

والخلاصة لم يغفل أبو الفرج عن شيء يتصل بالغناء ، مثل انتشاره والاستماع إليه ، وتعليمه في قصور الخلفاء ، واللجوء إليه في الأعراس وغير ذلك ممّا قد يفوتني ذكره .

نريد أن نعرف بعد هذه المقدمة الوجيزة كيف كان وصف الغناء في بعض كتاب الأغاني ، كيف كان التعبير عن تأثير الأصوات والألحان في النفوس ، على أنه لا سبيل إلى استيعاب هذا الوصف في مقال مثل هذا المقال ، وإنما نجتزىء بالإتيان بأنماط منه حتى نحيط بعض الإحاطة به .

لقد استفاضت في كتاب الأغاني أساليب مختلفة في وصف الغناء وتأثيره في النفوس ، مرّة كانوا يعمدون في وصف الغناء نفسه للتشبيه ، فقد كان الواثق يقول : غناء علوية مثل نقر الطست ، يبقى ساعة في السمع بعد سكوته ، ومن هذا النحو وصف الوليد بن يزيد ، فقد غنّى ابن عائشة يوماً فطرح الوليد في مثل الطناجير من حرارة غنائه ، فالطست والطناجير كانت أدوات يُلجأ إليها في التشبيه في وصف الغناء .

وقد يكون الطير في بعض الأحيان مادّة لهذا التشبيه ، ففي موضع من الأغاني نجد أن أشعب كان يغنّي وكأنّ صوته صوت بلبل .

ومرّة كانوا يستغنون عن التشبيه في وصف الغناء ، فيصفون فنّ الغناء نفسه من حيث أصوله ، فقد غنّى اسحق لحناً صنعه في شعر ابن ياسين ، فجاء في وصف هذا الغناء ما يلي : فقد غنّى إسحق استهلالاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبسيطاً وصاح وسجح ورجّع النغمة واستوفى ذلك كلّه في أربع كلمات .

وهذا هو شعر ابن ياسين :

الطــــاول الدوارس فارقتهـــا الأوانـــــس
أوحشت بعــــد أهلها فهي قفـــــر بسابس

وقد تكرّر هـــــذا الوصف في مقام آخر من كتاب الأغاني على لسان الواثق الذي قال : أوّل بيت في هذا الصوت أربع كلمات ، الطلول كلمة والدوارس كلمة ، وفارقتها كلمة والأوانس كلمة ، فانظر هل ترك اسحق شيئاً من الصنعة يتصرف فيه المغنّي لم يدخله في هذه الكلمات الأربع ، بدأ بها نشيداً وتلاه بالبسيط ، وجعل فيه صياحاً واسجاحاً وترجيحاً للنغم واختلاساً فيها ، وعمل هذا كله في أربع كلمات فهل سمعت أحداً تقدم أو تأخر فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟

ومن هذا النوع وصف غناء إبراهيم بن المهدي ، فقد غنّى إبراهيم يوماً فوفّى الصوت نغمه وشذوره ، وكانت كتفاه تهتزان وبدنه أجمع يتحرك ، وكان إذا غنّى :

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفّكم أو تسترون هلالها

فبلغ إلى قوله : جبريل بلّغهـــا النبيَّ فقالها ، هزّ حلقه فيه ورجّعه ترجيعاً تتزلزل منه الأرض ، لقد كان إبراهيم بن المهدي أحسن الناس كلّهم غناء في رأي محمد بن موسى المنجّم ، وذلك أنه كان يراه بمجالس الخلفاء مثل المأمون والمعتصم يغنّي ، فإذا ابتدأ الصوت لم يبق من الغلمان والمتصرفين في الخدمة وأصحاب الصناعات والمهن ، الصغار والكبار ، أحد إلاّ ترك ما في يده وقرب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه فلا يزال مصغياً إليه ، لاهياً عمّا كان فيه ما دام يغنّي ، حتى إذا أمسك وتغنّى غيره رجعوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلى التشاغل بما كانوا فيه ، ولم يلتفتوا إلى ما يسمعون ... ونظن أن هذا الإصغاء إلى إبراهيم بن المهدي إنما هو أبلغ إفصاح عن تأثير غنائه .

وإذا فرغنا من وصف الغناء فلا بأس بوصف تأثيره في نفوس السامعين ، كيف كان وصف هذا التأثير .

لقد بلغ من تأثير الغناء في النفوس أنهم إذا وصفوا هذا التأثير حملوا النبات والجماد على مشاركتهم في الطرب ، فقد نجد خبراً يتعلق بتشديد والي مكة نافع بن علقمة الكناني في الغناء والمغنّين والنبيذ ، وفي خلال هذا الخبر نرى أنّ ابن سريج قد غنّى في ظلال شجرة بشعر العرجي مرتجلاً ، فخيّل إلى الذي يسمعه أن الشجرة تنطق معه .

وغنّى ابن عائشة يوماً فخيّل إلى الذي سمعه أن الأودية تنطق معه حسناً .

ومثل هذا الأسلوب من الوصف قد نراه في مقام آخر من كتاب الأغاني ، نراه في نسب إبراهيم الموصلي وأخباره ولا حاجة بنا إلى ذكر الخبر بأجمعه على طرافته ، فقد خلا إبراهيم الموصلي في يوم من الأيام بجواريه وإخوانه ، وإذا هو بشيخ ذي هيبة وجمال ، عليه خفّان قصيران وقميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة لاطية ، وبيده عكّازة مقمّعة بفضة ، وروائح المسك تفوح منه ، حتى ملأ البيت والدار .. إني أجاوز ما جاء في هذا الخبر من غيظ إبراهيم بسبب دخول هذا الشيخ وأقف على غناء الشيخ الذي أخذ العود من إبراهيم وجسّه حتى خاله إبراهيم ينطق بلسان عربي لحسن ما سمعه من صوته ، ثم تغنّى الشيخ فقال إبراهيم : فوالله لقد ظننت الحيطان والأبواب وكل ما في البيت يجيبه ويغنّي معه من حسن غنائه ، حتى خلت والله أني وعظامي وثيابي تجاوبه ، وبقيت مبهوتاً لا أستطيع الكلام ولا الجواب ولا الحركة لما خالط قلبي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتبيّن بعد ذلك لإبراهيم أن هذا الشيخ إنما هو إبليس نفسه ، فقد كان جليسه ونديمه ذلك اليوم .

الخبر غاية في الطرافة ، ويستحسن الرجوع إليه لطرافته ، ولكن المهمّ فيه إنما هو الوصف ، فقد جاء هذا الوصف على لسان إمام من أئمة الغناء ، عرف أسرار الغناء ووقف على البراعة فيه ، فكان الوصف مشتملاً على أبلغ ما يكون من الإفصاح عن التأثير ، وأيّ وصف أبلغ من أن تكون عظام إبراهيم وثيابه تجاوب الشيخ في غنائه .

وقد يخلو وصف تأثير الغناء في بعض الأحيان من التشبيه ولغة الشعر ، فيستعملون ألفاظاً مجرّدة تكاد تنطق بنفسها ، من ذلك ما وجدته في دفتري في وصف غناء لا أذكر صاحبه فان الذي سمع هذا الغناء طرب ونعر ونخر .

ويجدر بنا بعد هذا كله أن نشير إلى وصف حركات السامعين الذين كان يهزّهم حسن الغناء والصوت ، فقد كان الهادي يشتهي من الغناء ما توسّط وقلّ ترجيعه فغنّاه يوماً حكم الوادي بشعر النابغة الجعدي فوثب عن فراشه طرباً .

وسمع عمر الوادي يوماً إنساناً يغنّي غناء لم يسمع قط أحسن منه ، فكاد يسقط عن راحلته طرباً .

وغنّت جميلة يوماً فسمع للبيت زلزلة وللدار همهمة ، ثم غنّت فاستخفّ غناؤها القوم أجمعين ، وصفّقوا بأيديهم ، وفحصوا بأرجلهم ، وحرّكوا رؤوسهم ، وقالوا لها : نحن فداؤك من السوء ووقاؤك من المكروه ، وأنشدت قصيدة في عمر بن الخطّاب وعملت فيها لحناً لا يسمعه أحد إلاّ بكى ، حتّى قال الذي سمعه : والله ما سمعته قط إلاّ أبكاني لأني أجد حين أسمعه شيئاً يضغط قلبي ويحرقه فلا أملك عيني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقريب من هذا الوصف ما جاء في أخبار عبد الله بن جعفر ، فقد أمر جارية له أن تغنّي ، فغنّت ، فجعل شيخ من الحضور يصفّق ويرقص ويحرّك رأسه ويدور ، حتّى وقع مغشياً عليه .

ومنهم من كان يسمع حسن الصوت فيطرب طرباً يهمّ معه أن ينطح برأسه الحائط .

ولم يقتصروا على وصف تأثير الغناء في الناس ، فقد وصفوا تأثيره في الوحش . غنّى إبراهيم بن المهدي يوماً على أشدّ طبقةٍ يتناهى إليها في العود ، وقد وصف صوته من كان يسمعه فقال : كان إذا ابتدأ يغنّي أصغت الوحش إليه ومدّت أعناقها ، ولم تزل تدنو من الحضور حتى تكاد أن تضع رؤوسها على الدكّان الذي كانوا عليه ، فاذا سكت نفرت وبعدت من القوم حتّى تنتهي إلى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها عنهم .

* * *

في هذا القدر من الاستشهاد مقنع ، فانّ كتاب الأغاني لا تكاد ورقة من أوراقه تخلو من وصف محاسن الأصوات والألحان وتأثيرها في النفوس ، والذي تبيّن لنا من الاستشهاد بما استشهدنا به أن لغة الغناء ، أي لغة وصف الغناء وتأثيره كانت تعبّر عن هذا الوصف تعبيراً واقعاً ، فانّ حركات السامعين التي تقدمت الإشارة إليها ، نكاد نشهد أمثالها يومنا هـــذا ، فالتصفيق باليد والفحص بالرجل وهزّ الرأس ، كل هذا من حركات الاستحسان ، وقد يبالغون في بعض الأحيان فيُنطقون الأودية والجبال والبيوت والحيطان والأبواب في هذا الاستحسان ، أو يفصحون عن النطح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالرأس أو السقوط عن الراحلة من الطرب ، أو عن زلزلة البيت وهمهمة الدار من حسن الغناء ، أمّا وصف الغناء نفسه فلا شك في أن ألفاظ النغم والترجيع والصياح والأسجاح والترجيح للأنغام والاختلاس فيها ، كل هذا داخل في لغة الغناء ، فالبلاغه كل البلاغة في الوصف أن يلجأ الواصفون إلى الألفاظ التي يستلزمها هذا الوصف ، ولِوصف كل أمر من الأمور لغة خاصة ، فالألفاظ التي تستعمل في وصف الغناء تختلف عن الألفاظ التي تستعمل مثلاً في وصف الطبيعة .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net